الفصل السادس

الصينيون وعلم الجغرافية

وضع بلاد الصين الجغرافي يساعد على أن يكون الصينيون متميزين في مجال علم الجغرافية، فطوروا الطرق والمحصولات الزراعية والحيوانية في بلادهم، وطبقوا نفس النظريات على البلدان المجاورة، فوصل تأثيرها معظم بلدان آسيا وأفريقيا والحقيقة أننا لانعرف بالضبط متى بدأت الحركة الفكرية الجغرافية في بلاد الصين، ولكن المتواتر أنها بعد الحضارتين المصرية والبابلية، وعليه نستطيع القول إنه من المحتمل جدا أن علماء الصين استفادوا من نتاج هاتين الحضارتين العملاقتين.

لقد سيطرت الأفكار الخرافية والأساطير على نظريات وآراء علماء الصين في علم الجغرافيا فمثلا ظنوا أن الأرض على شكل مربع، وعملوا خريطة تضم مجموعة من المربعات ذات المركز الواحد والعجيب أن مثل هذه الخريطة بقيت ردحا من الزمن مستعملة في بلاد الصين.

ويذكر شريف محمد شريف في كتابه (تطور الفكر الجغرافي) أن رجلين قاما بقياس أبعاد الأرض فقاما مرة بقياس مابين الشمال والجنوب، ومرة أخرى بقياس مابين الشرق والغرب، وفي الحالتين حصلا على نتيجة واحدة أي أن البعدين متساويان وقد وجداه نحو (٨٤٠٠٠)ميل.

يتضح للقارىء أن الصينيين كان عندهم قناعة تامة أن الأرض مسطحة، لأنهم عاشوا أسرى للخزعبلات العقيمة. ومما يؤسف له أن الخرافات والأساطير كانت متوغلة في معظم حضارات العالم القديم التي ظهرت قبل الحضارة العربية والإسلامية.

بدأت حركة الانفتاح لبلاد الصين في القرن الخامس الميلادي، حيث صار

بينهم وبين بلاد فارس علاقات دبلوماسية لذا بذل كل من الصين وفارس جهدا عظيما في بناء الطرق الموصلة بين هذين البلدين.

لقد درس الصينيون عن كثب المسالك البحرية الآمنة في المحيط الهندي وما يتصل به من بحار، فعرفوا آسيا حتى بحر قزوين ونهر الفرات، لذا استطاع علماء الجغرافيا بالصين أن يرسموا خرائط صادقة وفي غاية الأهمية تمثل المكانة التي وصلت إليها الحضارة الصينية القديمة في هذا الميدان.

وأضاف شريف محمد شريف في كتابه آنف الذكر أن الصينيين ظهروا في بلاد فارس في أواسط القرن الخامس الميلادي وفي مقابل ذلك أرسل ملوك الفرس سفارات إلى الصين لتبادل العلاقات الدبلوماسية والتجارية وغيرها. نعم حاول الصينيون أن يعرفوا بلدان آسيا عن قرب، فأرسل امبراطور الصين بعثة للهند سنة ٦٥ ميلادية لدراسة دينهم البوذي، فعادت البعثة مقتنعة في الدين البوذي لذا صار معظم الصينيين يدينون بالبوذية.

ولايخفى على القارىء أنه حصل لبلاد الصين غارات شرسة من المغول والأتراك خلال القرن الرابع والخامس الميلاديين ولكن الصينيين ردّوهم على أعقابهم وهذا التحرك والتحرش بهم قادهم إلى احتلال معظم بلدان الشرق الأقصى، لتكون حزاما أمينا لهم، كما بقي دينهم الرسمي البوذية.

وينقل لنا شريف محمد شريف في كتابه المذكور أعلاه عن كل من محمد صبحي عبدالحكيم وماهر عبدالحميد الليثي في كتابهما علم الخرائط أن أقدم الخرائط الصينية الخريطة التي أوردها بالتفصيل المؤرخ الصيني سوماشين (Su Machien) في كتاباته المعروفة، والمعتقد أن تاريخ إنشاء تلك الخريطة التي وضعها بي هيسو (Pei Hsiu) الذي يعتبر بحق رائد الكارتوجرافيا الصينية حيث وضع أسسها وأضاف إلى علم الخرائط مايأتي:

١ ـ قسم الخريطة إلى شبكة من الخطوط الرأسية والأفقية لتسهيل تحديد مواقع البلاد.

٢ ـ عرف كيفية توجيه الخريطة.

٣ ـ حدد الأبعاد والمسافات بين مختلف الأماكن.

٤ ـ حدد مقدار ارتفاعات الأماكن وانخفاضاتها على الخريطة بعضها إلى بعض.

٥ ـ بين على الخريطة اتجاهات الطرق وانحناءاتها . .

وأتى بعد بي هيسو علماء صينيون أفذاذ وعلى رأسهم هسيه شوانج (Hsieh choung) الذي عاش فيما بين (٤٢١ـ٤٦٦ ميلادية) والذي صنع خريطة خشبية لكافة أقاليم الصين مساحتها عشرة أقدام مربعة، ثم أتى تشايتان (Chia - Tan) الذي عاش فيما بين (٧٣٠ـ٨٠٥م) والذي رسم خريطة مساحتها ثلاثون قدما مربعا لمعظم قارة آسيا.

مما تقدم يتبين لنا أنه في علم الجغرافيا تمكن علماء الصين من معرفة قارة آسيا عن كثب، لذا صار لديهم اتصالات قوية ليس فقط مع البلدان المجاورة ولكن مع معظم بلدان آسيا وشمال أفريقيا، وهذا الاتجاه ساعد تطور علم الجغرافيا لذا من الصعب جدا أن باحثا يدرس الجغرافيا القديمة دون التعرض للدور الذي قام به علماء الصين.